بسم الله الرحمن الرحيم

١٨ ـ سورة الكهف

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال الهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلىّ عن الأعداء ، والإغناء الكلىّ عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية ، وقيل[١] إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله[٢] (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية[٣] و (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى آخر السورة . واختار الدانىّ أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى فى فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

---

(١) [١٨ / الكهف / ١ـ٨] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .
(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧ـ١١٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ » قدَّمنا أن كثيراً ماتفتح السور وتختم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ)[1] وتعليما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذى بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى. وفى إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العليّة ، تنبيه على أنه أعظم نعائه. فإنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد ، والداعى إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شىء فى معناه يماثله . وفى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزَل والمنزَل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم فى سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام . وتعريفُ الكتاب للعهد . أى الكتاب الكامل الغنىّ عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا » أى شيئاً من العوج ، باختلال فى نظمه وتناف فى معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيلاً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)

[٣] (مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّمًا » أى قيّماً بمصالح العباد وما لابد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بعد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قيماً على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهياً فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفى العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبئ عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جعله) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانىّ أن الضمير فى (لَّهُ) وما بعده لقوله (عَبْدِهِ) قال: أى لم يجعل لعبده زيغاً وميلاً . وجعله قيّماً ، يعنى مستقيما ، كما أُمِرَ بقوله[1] (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) أو قيّماً بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على الكمال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام، لما فُرِغ من تقويم نفسه وتزكيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأُمِرَ بتقويمها وتزكيتها . ولهذا المعنى سمى إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القيّميّة أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .

والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله (مِّن لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هَوْله. ولذلك عظمه بالتنكير . متعلق بـ (أَنزَلَ) أو بعامل (قَيِّمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى به . وقال القاشانىّ: أى الموحدين، لكونهم فى مقابلة المشركين، الذين قالوا اتخذ الله ولداً . وقوله تعالى « ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى من الخيرات والفضائل « أَنَّ لَهُمْ » أى بأن لهم ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة « أَجْرًا حَسَنًا » وهو الجنة « مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب فى قولهم (الملائكة بنات الله) والنصارى فى (دعواهم المسيح ابن الله) وخصهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً بهم، استعظاماً لكفرهم . وتركُ إجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة ، فى الكفر على أقبح الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

« مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ » أى مالهم بالولد، أو باتخاذه، أو بالقول، من علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء. لاعن علم يقين ، ويقين. ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أى ما أكبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ » وذلك لأن الولد مستحيل لامعنى له . إذ العلم اليقينىّ يشهد أن الوجود الواجبىّ أحدىّ الذات ، لايماثله الوجود الممكن . والولد هو المماثل لوالده فى النوع ، المكافئ له فى القوة. وجملة (تخرج من أفواههم)صفة لـ(كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم. قال الشهاب: لأن المعنى : كبر خروجها . أى عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إن

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » أى قولًا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلًا . وذلك لتطابق الدليل القطعىّ ، والوجدان الذوقىّ على إحالته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦] (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا)

« فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ » أى مهلكٌ « نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه. أو متأسفاً عليهم. و(الأسف) فرط الحزن والغضب. وفى (العناية) : لعل للترجى. وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه. وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو آسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقته أحبته . فهمّ بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك ـ كما قال القاشانىّ ـ أن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم من لوازم محبة الله ونتائجه . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله لقوله[1] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) وكلما كانت محبته للحق أقوى، كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه . بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقىّ . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضاى ، وأقدر على مخالفتها لموافقتى .

---

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

« وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستوياً لانبات فيه . بعد ما كان يبهج النظار ، لا شىء فيه يختلف ، رُبًى ووهاداً . أى نفنيها وما عليها ولا نبالى . وفى الآية تسلية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفنيها ، ولا حيف ولا نقص . أوْ لا تحزن فإنا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا)

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و (مِن ءَايَـٰتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرىّ بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلُها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) ـ أى إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى ـ فيه بُعْدٌ . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلّا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلبهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

« إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ » أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم فى حال شبابهم « فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ » أى من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً » أى من خزائنك وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أى أنمناهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير، ولا دعوة الداعى الخبير ، فى الكهف سنين ذوات عدد . أى كثيرة أو معدودة. قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أنمناهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إمّا من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّه ، لاستغراقه فى نومه حتى لا ينتبه بمنبه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ » أى أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا » أى لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أى الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم ، أشد إحصاءً ، أى إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدوّ ، فيتمّ لهم رشدهم فى شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى)

« نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع فى تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و(الحق) الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيماناً يقينيا علمياً على طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك «وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى» أى بترجيح جانب الله على جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية ـ وهم الشباب ـ أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد يروى عن هؤلاء الفتية روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتيةُ المنوه بهم . وخلعوا الوثنية التى عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم . فاستخفوا عنه فى الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، . فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ، فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذى كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ) وكان ورِق ذلك الزمان لدولة أهله. فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر ما رأى. ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا؟ هذا من ورِق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريهم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسنذكر فى آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم .

وقد قيل إنهم كانوا فى مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، فى جبلٍ بها ، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسَّرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُواْ » أى بين يديه غير مبالين به . و (إذ) ظرف لـ(ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشدّ المعروف . أى استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القلق والخوف يزعج به القلب من محله، كما قال تعالى[1] : (وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمرٍ ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

بالحيوان المربوط فى محلّ . وعدّى (ربط) بـ (على) وهو متعدٍّ بنفسه ، لتنزيله منزلة اللازم « فَقَالُواْ رَبُّنَا » الذى نعبـــده « رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَن نَّدْعُوَاْ » أى نعبد « مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ، لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

« هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفى الإشارة تحقير لهم « لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم » أى على عبادتهم أو إلٰهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانىّ : دليل على فساد التقليد ، وتبـكيت بأن إقامة الحجة على إلٰهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال[1] : (إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لـكونها ليست بشىء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له فى الظلم والـكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون فى حق الله ، لافترائهم عليه بأن فى رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضًا بقولهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا)

«وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ» أى وإذ اعتزلتم القوم،

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو فى ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذى لا يطلعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من الكون فيه ، فواتَ الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد مادعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ » أى ما يغنى عن الطعام والشراب، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية « وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مِرْفَقاً » أى ما تنتفعون به . قال المهايمىّ : يرفق بنفوسكم فيعطيها من لذات عبادته ما ينسيها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالية عن الأذيات كلها . وجَزْمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبيه :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأسى بأهل الكهف فى الاعتزال ، إذا اضطُهد المرء فى دينه وأريد على الشرك . وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمامُ الغزالىّ حيث قال فى (إحيائه): وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولا ريب فى مشروعيته فراراً من الفتن .

فقول السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان ـ كلام مجمل لابد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية فى الاضطهاد فحسبُ ، فافهم ولا تَغْلُ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ،

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)

« وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت » أى صعدت عند طلوعها « تَّزَٰوَرُ » أى تميل « عَن كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ ٱلْيَمِينِ » أى يمين الكهف « وَإِذَا غَرَبَت » أى هبطت للغروب « تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس. وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال. فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله. فيقع شعاعها على جانبيه. يحلل عفونته ويعدل هواءه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم. قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع. أى قطع الاتصال بهم لئلا تغير أبدانهم . وقولُ الفارسىّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد ـ مردود، بأنه لم يسمع له ثلاثىّ.

وفى (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم فيه، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أى إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه « فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا » أى ناصرًا يلى أمره فيحفظه من الضلال « مُّرْشِدًا » أى يهديه إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ، لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يامخاطب ، أيقاظاً لا نفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عينا . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

ينـــامُ بإحدى مقلتيه وَيتَّقِى بأخرى الرزايا فهو يقظانُ نائمُ

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود، لأن فاعلًا لا يجمع على فعول ـ مردود بما نص عليه النحاة كما صرّح به فى (المفصّل) و (والتسهيل) « وَنُقَلِّبُهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ » أى لئلا تتلف الأرض أجسادهم « وَكَلْبُهُمْ بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتُهم كلبَهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، قال ابن كثير : وهذا فائدة صحبة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلبٍ ، ليهابوهم مع هيبـــةٍ ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » أى خوفا يملأ صدرك، لما ألبسوا من الهيبة. فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك ـ كما قال ابن كثير ـ لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ » أى وكما أنمناهم تلك النومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيآتهم وأحوالهم شيئاً ، ادّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً. قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين. وقوله تعالى « لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ » أى ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرّموا به . أفاده الزمخشرىّ .

وبه يتبيّن أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لَحَظَ أن الغرض من فعله تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهارٍ ، واستيقاظهم كان فى آخر نهار. ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايمىّ : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ، ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم . فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالولىّ يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشرىّ : جواب مبنىٌّ على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون خطأً .

« قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم.

كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة ، أو بإلهام من الله ، أن المدة متطاولة ، وأن مقدارها مبهم . فأحالوا تعيينها على ربهم . « فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ » أى المأخوذة للتزود. و (الورِق) الفضة « إِلَى الْمَدِينَةِ » أى التى فررتم عنها « فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا » أى أطيب . « فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أى فى المبايعة واختيار الطعام . أوفى أمره بالتخفى ، حتى لا يشعر بحالكم ودينكم « وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)

« إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » يطلعوا على مكانكم « يَرْجُمُوكُمْ » أى يقتلوكم بالحجارة « أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » أى يدخلوكم فيها بالإكراه العنيف « وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا » أى إذا صرتم إلى ملتهم. قال القاشانىّ: ظهور العوامّ، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين ، ورجمهم أهل الحق ، ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ـ ظاهر . كما كان فى أوائل البعثة النبوية .

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف وصلوا قولهم (فَابْعَثُوا) بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك . لا طريق لكم فى علمه . فخذوا فى شىء آخر مما يهمكم . انتهى .

ورأى المهايمىّ أن قولهم (فَابْعَثُوا) من تتمة حديث المدة. قصد به تفحصها. كأنهم لما أحالوا تعيينها على الله تعالى بقولهم (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) قالوا هذه الإحالة لا تمنع من طلب العلم بالمدة . ولو فى ضمن أمرٍ آخر ، فاطلبوه فى ضمن حاجةٍ لنا. وهى أن تبعثوا أحدكم

بورقكم هذه لئلا نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيما فى مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به، فيفضى إلى الهلاك .

الثانية ـ قال فى (الإكليل) : قوله تعالى (فَابْعَثُوٓاْ) الآية ، أصل فى الوكالة والنيابة.

قال ابن العربىّ : وهى أقوى آية فى ذلك .

قال الكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا فى الأكل .

الثالثة ـ دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا) على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبًّا الاعتناء بجودته وتزكيته ، كما فصّل فى قوانين الصحة .

الرابعة ـ قال الرازىّ : (الرجم) بمعنى القتل، كثير فى التنزيل كقوله[1] (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ) وقوله[2] (أَن تَرْجُمُونِ) وأصله الرمى ، أى بالرجام وهى الحجارة . ولا يبعد إرادة الحقيقة فى موارده كلها ، زيادة فى التهويل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل. وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)

« وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة ، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد « لِيَعْلَمُوٓاْ

(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، أن وعد الله بالبعث حق. لأن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث « وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ » أى الموعود فيها بالبعث « لَا رَيْبَ فِيهَآ » إذ لابد من الجزاء بمقتضى الحكمة . ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم ، بقوله سبحانه « إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا » أى على باب كهفهم بنيانا عظيما. كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم و (إِذْ) على ما يظهر لى ، ظرف لـ (اذكر) مقدرًا . والجملة مستأنفة لبيان ختم نبئهم بما جرى بعد مماتهم ، إثْرَ ما أوجز من نبئهم بعد بعثهم والإعثار عليهم . وجعلهُ ظرفاً لـ (أَعْثَرْنَا) أو لغيره مما ذكروا ـ ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى

وقوله تعالى (فَقَالُواْ) تفسير للمتنازع فيه . وقوله تعالى ، « رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جملة معترضة . إما من الله ، ردًّا على الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده ﷺ من أهل الكتاب ، أو هى من كلام المتنازعين فى عهدهم. كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا فى أحوالهم ومدة لبثهم . فلما لم يهتدوا لحالوا حقيقة نبئهم إليه تعالى « قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ » أى من المتنازعين ، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » أى نصلى فيه ، تبركا بهم وبمكانهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكى فى القائلين ذلك قولان (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر. لأن النبى ﷺ قال[1] : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) يحذّر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعتنا).

وعجيب من تردده فى كونهم غير محمودين ، مع إيراده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهىّ والمقت الربانى . والسبب فى ذلك أن البناء على قبر النبىّ والولىّ مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس فى قوله تعالى[1] (وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادى عليه الرحمة ، فى كتابه (الصارم المنكى) بعد إيراده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا فى زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام فى زيارة القبور . وتلقّاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبىّ ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله ربه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٣] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيما . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرج ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، ونزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم ـ كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظّم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظَّم ويبغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه فى الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فتعظيم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقدَّم على ماجاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما مايحبه المعظَّم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم فى الحقيقة . والثانى ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلىّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبىّ ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفى المسند[1] بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يامحمد! ياسيدنا! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبدالله ، عبدُ الله ورسولُه . ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ[2] : (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال[3] : (إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣١ ـ باب رجم الحبلى فى الزنى إذا أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة فى آخر حجة حجها.

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعتنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس فى تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تتمة مهمة فانظره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون فى قصتهم على عهد النبىّ ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظنًّا خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا » أى لا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً لينًا غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالىّ ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال[1] (وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

فى معرفة ذلك لايترتب عليه كبير فائدة . قيل : المراة المجادلة . وقيـــل بالفرق . فالمجادلة المحاجّة مطلقاً . والمراة المحاجة فيما فيه مرية أى تردد ، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحـداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجما بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ماعنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لامرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجما بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو فى قوله (وَثَامِنُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لاعدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدّة . وأقول : لايخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليـه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لايخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه فى الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شىء . وجوابُ بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لفتهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية ـ بعيدٌ غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب فى القول .

ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتعين للوصفية . لجواز كونها حالًا من النكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوّغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى (قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) فإن فى تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهانا ظاهرا على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام ، ردّ العلم إليه تعالى . وإشارةً إلى أنه لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم بيّن وبرهان نيّر . وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إما نبيّ ، أو من كان فى مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسدّ من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هـذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة ـ فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبيّ ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس فى عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازىّ نقل عن القاضى أنه قال : إن كان ـ ابن عباس ـ قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لى الآن .

وبعد كتابتى لما تقدم بمدة ، وقفت على نبئهم فى (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه فى آخر الآيات فيهم . فسنح لى أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال فى (قاعدة له فى التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ـ مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته. إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما. ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال فى مثل هذا (قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل فى هذ المقام .

الثانى ـ قال الرازىّ : ذكروا فى فائدة الواو فى قوله (وَثَامِنُهُمْ) وجوهاً :

الأول ـ ما ذكروه أنه يدل على أن هـذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها ـ أن السبعة عند العرب أصل فى المبالغة فى العدد. وإذا كان كذلك، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف، فقالوا: وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون. قالوا: ويدل عليه نظيره فى ثلاث آيات، وهى قوله[1] : (وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله[2] : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله[3] : (ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا) لأن قوله : (وَأَبْكَارًا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (وَوَ الثمانية) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] .(٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] .(٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القفّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى[١]: (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف) : الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واوا لثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لثبته قدم . ويعدون مع هذه الواوَ في قوله في الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واوا تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) وهو الثامن من قوله (ٱلتَّٰٓئِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي (ٱلْأٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها وموارداها؟ كقوله[٢](يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)وكقوله[٣] (وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)وربما عدّ بعضهم من ذلك ، الواوَ في قوله:(ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (ثَيِّبَٰتٍ أَبْكَارًا) لم يستدّ الكلام. فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى في (الإكليل عن مجاهد في قوله تعالى : (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدّيّ : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] .
(٢) [٩ / التوبة / ٧١] .
(٣) [٣١ / لقمان / ١٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » فى هـذه الآية وجوه من المعانى . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك فى القول ، فتكون قائلا بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشىء لا تعلم إلا بإذنه فيه أى إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل ، إنى فاعل ذلك غداً إلا قائلا معه إن شاء الله تبرؤا من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلا بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لاتقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتًّا له . لأنه[1] (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغى الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) أى أن تقول ذلك البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هـذه الوجوه كلها فـ (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ فى كتاب (الحيوان) : إنما ألزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليبقى عادة للمتألى ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى ، وعلى أن يكون عبده ذاكراً لله . لأنه عبد مدبَّر ، ومقلَّب ميسَّر ، ومصرَّف مسخَّر . وبقى وجه آخر . وهو أن المعنى لاتقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لكل ما يعزم عليه ويقوله . كقوله تعالى[2]

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر ببادئ الرأى كما قاله فى (الانتصاف) وفى هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمرٍ ما فى نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر فى غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شىء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولًا أوليًّا. أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله، إذ شاء الله أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثْرَ ما يومئ إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتائهم، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسى، أى نسى ما وصّى به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر فى (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى ـ قصرٌ للآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور فى تأويلها، وعدم تمعن فى مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفى بقية المعانى الأخر التى اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضا. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا» أى خيرًا ومنفعة. والإشارة، للنبأ المتحاوَر فيه.

تنبيهات :

الأول ـ روى أنه صلوات الله عليه سُئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين، فقال : أجيبكم عنها غدًا ولم يستثن. فاحتبس الوحى خمسة عشر يومًا، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية. وقد زيف هذه الروايةَ القاضى ـ كما حكاه الرازىّ ـ من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، والله أعلم.

الثانى ـ يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى » الآية، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبغى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشاد فيه، حتى يتكلف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه فى المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التى حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التى حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل فى شأنها .

الثالث ـ اعترضت هذه الآداب أعنى من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تتميم نبئهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ فى النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع ـ روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثن ، وذلك (كما قال القرطبىّ) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال فى (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حِلُّها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة فى الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معانى الآية . وقد حكى عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفى (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة فى (مستدرك الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثنى إلى سنة) ومثله عند أبى موسى المدينىّ وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضى الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيّم فى (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئا ولم يستثن ، فله أن يستثنى عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه. والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكر، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود[١] وغيره (والله ! لأغزونّ قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث[٢] (ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو فى الصحيح . ومنها قوله[٣] ﷺ فى صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا)

[٢٦] (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ، لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا)

« وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ » حكاية لقول أهل الكتاب فى عهده ﷺ ، فى مدة لبثهم نائمين فى كهفهم الذى التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضى الله عنه (وَقَالُواْ وَلَبِثُواْ) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَٱزْدَادُواْ) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٧ ـ باب الاستثناء فى اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٧ ـ باب الإذخر والحشيش فى القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعتنا) .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة. ولا يخفى ركاكة ماذكر، فإن الضمير للفتية.ووجه العدول موافقة رؤوس الآى المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخصرية تدقيق نحوىّ لاتنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأباها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربى يجد بينهما فى الطلاوة بعد المشرقين . ودعـوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بيـــانا للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين ـ دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية، فلذلك قال : (وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً) لنقف على تحديد ماعنوه، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعى لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جلية بنفسها فى دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية، وبأى منها قالوا: فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ » أى بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ماليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما ، أى أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ » أى ماأبصره لكل موجود ! وأسمعه لكل مسموع لايخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشرىّ : جاء بمادل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حد ماعليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرما ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ) المنتخبُ على جواز إطلاق صيغة التعجب فى صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعنى

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما فى الآية . وقد يقال بالوقف . ينبغى التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُم » أى أهل السموات والأرض فى خلقه « مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ » أى يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ » أى قضائه « أَحَدًا » أى من مكوناته العلوية والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتدبيرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .

قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من قبيل المسموع ، فهو أسمع . أو من قبيل المبصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جدًّا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

« وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ » أى بتبليغ مافيه . ومنه ما أوحى إليك من نبأ الفتية ، فإنه الحق الذى لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشانىّ : يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذى منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى « لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ » أى لا مغيّر لها ولا محرّف ولا مزيل .

قال القاشانىّ : (كلماته) التى هى أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها . فأشار إلى أن النسخ إنما هو فى الفروع لا الأصول .

والأظهر فى معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله[1] (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ) وأما هو سبحانه فهو فعّال لما يريد « وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا) أى ملجأً .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وذهب ابن جرير[1] فى تفسير هـذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنّ تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) يقول لامغير لما أوعد بكلماته التى أنزلها عليك، أهلَ معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك . وقوله (وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) يقول وإن أنت لم تتل ماأوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتمّ به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلًا تئل إليه ، ومعدلًا تعدل عنه إليه. لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لايقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر فى تواريخ المسيحيين، وعيد سنوىّ يقام تذكارًا لهم، فى اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم فى الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التى كانت عليها اليونان. وقد رأيت فى كتاب (الكنز الثمين فى أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) نقتطف منها مايأتى ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لايعرف أصلًا ، كما قرأته فى بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة: هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد. وأسماؤهم: مكسيميانوس ومالخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . فى زمن الاضطهاد القاسى الذى صنعه ضد المسيحيين، الملك داكيوس.

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد أجّلهم المسيحيون كشهداء حقيقيين. فيقام لهم فى الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهادهم ثمة، فى اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأعجوبة التى بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة فى المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية فى سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة فى التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان فى زمن الملك داكيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم فى مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال: فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتؤون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية فى تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان فى مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت فى المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم فى المغارة المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التى كان يتكبدها المسيحيون فى ذاك الاضطهاد الوحشىّ .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك فى ٤ آب سنة ٤٤٧ فى زمن ولاية الملك (ثاوضوسيوش الصغير) .

ثم قال: ودرج على أفواه الشعوب؛ أن هؤلاء الفتية، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك ،لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعيا ولاقسريًّا . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتى سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعىّ سنة (٤٤٧) .

ثم قال: وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلَى ، بعد أن دفنوا فى ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً ، بواسطة خارقة مَّا ،

ونقلت من مدفنهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيّدوا حقيّة إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلّمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة. التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ أكاذيب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته، واقتلعه من جذوره ، القرآنُ الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى[1] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف. وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذى بأيدينا. وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوىّ والمقام المحمدىّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا)

«وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ» أى احبسها وثبتها « مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ » أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك لئلا يؤديك إلى الغفلة عنه « وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به مضيّعاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهىّ عن إطاعتهم ، بالموصول ، للإيذان بعلّية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير[1] : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبىّ ﷺ جالساً مع خبّاب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفى رواية ابن زيد[١] : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحيي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبْهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم[٢] عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبيّ ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبيّ ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع . فحدّث نفسه . فأنزل الله عزّ وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخارىّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلىّ منه تعالى « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ » إمّا من تمام المقول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلىّ حق لاريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم ، وجوداً وعدماً ـ ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود. وفى (العناية) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته. فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله[1] (أَسِيئِى بنا أو أَحْسِنِى لا مَلُومَةً) وهذا رد عليهم فى دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالى به حتى نطردهم لذلك ، بعد ماتبين الحق وظهر. وقوله تعالى : « إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا » وعيد شديد، وتأكيد للتهديدوتعليل لما يفيدهمن الزجر عن الكفر. أو لما يفهم من ظاهر التخيير، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه. فإن إعداد جزائه من دواعى الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدىّ . أى قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم بـ(الظالمين) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوزٌ عن الحد ووضع للشىء فى غير موضعه . أفاده أبو السعود. وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها. وهى الخيمة. شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار فى الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط للمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردَق ، ذو سرادق « وَإِن يَسْتَغِيثُواْ » أى من الظمأ لاحتراق أفئدتهم « يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ » أى كالحديدالمذاب وكعكر الزيت، وقال القاشانىّ: من جنس الغَسَّاق والغِسْلين ، أى المياه المتعفنة التى تسيل من أبدان أهل النار ، مسودّة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة. ويؤيده قوله تعالى[2] (وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ) « يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ » أى إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثيّر عزّة . وعجزه: لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ .(٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَآءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقاً » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد. وذكره لمشاكلة قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله[1].

إنى أَرِقْتُ فبتُّ الليلَ مرتفقاً كأن عَيْنِى فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والصاب: شجر مرّ يحرق ماؤه العينَ. ومذبوح: مشقوق. وفى كتاب (تنزيل الآيات) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً، أى متكئاً على مرفق يده. وهو هيئة المتحزنين المتحسّرين. فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم، بل هو على حقيقته. كما يكون للتنعّم يكون للتحزن. وتعقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخدّ للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرّجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ، نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلىّ . وهو فى اللسان فى مادة (ص و ب) .
وروايته هناك (مشتجرًا) بدل (مرتفقاً) .
وفى الديوان ١/١٠٤ (نام الخلىّ) عوضاً عن (إنّى أَرِقْتُ) .

ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ » وهو ما رقّ من الديباج « وَإِسْتَبْرَقٍ » وهو ما كثف منه « مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السرر على هيئة المتنعمين « نِعْمَ ٱلثَّوَابُ » أى الجنات المذكورة « وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية[1] (إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) وآية[2] (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى للمؤمن والكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى فحصل منهما الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ، وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا)

« كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا » أى ثمرها كاملة « وَلَمْ تَظْلِم » أى لم تنقص « مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا » أى فيما بينهما « نَهَرًا » أى يسقى الأشجار والزروع ، ويزيد فى بهجة مرآها ، تتميما لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

« وَكَانَ لَهُۥ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثَمَّرَ ماله) إذا كثَّره « فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أى يراجعه الكلام، تعييرًا له بالفقر ، ونخراً عليه بالمال والجاه « أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أى أنصاراً وحشماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ » أى بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها . كما يدل عليه السياق ومحاورته له . وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر ، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها ، وإما لاتصال إحداها بالأخرى ، وإما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة . وقيل: الإضافة تأتى لمعنى اللام . فالمراد بها العموم والاستغراق . أى كل ما هو جنة له يتمتع بها . فيفيد ما أفادته التثنية معزيادة . وهى الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بما يوجب سلب النعمة ، وهو الكفر والعجب . وفى (العناية) ظُلْمُهُ لها إما بمعنى تنقيصها وضررها، لتعريض نعمته للزوال ونفسه للهلاك، أو بمعنى وضع الشىء فى غير موضعه. لأن مقتضى ما شاهده التواضع للمكى ، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً . والكفر بإنكار البعث كما يدل عليه قوله « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ » أى تهلك وتفنى « هَٰذِهِۦٓ » أى الجنة « أَبَدًا » لاعتقاده أبدية الدهر ، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعره . ولذا قال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)

« وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى كائنة آتية ، وقوله « وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا » إقسام منه على أنه ، إن رد إلى ربه ، على سبيل الفرض والتقدير ، كما يزعم صاحبه ، ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعاً وتمنياً على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده . وإنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله[١] : (إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ)[٢] (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) و (مُنقَلَبًا) أى مرجعًا وعاقبة . أفاده الزمخشرىّ .

قال المهايمىّ : فكفر بالقول بقدم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) والقول بقدم العالم ينفى اختيار الصانع وإرادته . وبإنكار حشر الأجساد ينفى قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفى الحكمة الإلهية . ثم بيّن تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظًا له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ » أى الذى عيّره بالفقر، تعييراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أى يراجعه كلام التعيير على الكفر ، محاورته كلام التعيير على الفقر ، فى ضمن النكر عليه « أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ » أى بجعل التراب نباتًا ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا » أى عدّلك وكملك إنسانًا ذكراً بالغًا مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعلّية ما فى حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله تعالى عز من قائل[٣] : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ) الآية ، وكما قال تعالى[٤] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أى كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] .
(٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .
(٣) [٢٢ / الحج / ٥] .
(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابته . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء. ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا)

« لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَّٰكِنَّا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وبإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها فصار (لكن) ثم ألحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة . قال الزمخشرىّ : ونحوه قول القائل[1] :

وتَرْمِينَنى بِالطرفِ أىْ أنْتَ مُذْنِبٌ ... وتقلينني لكنَّ إيَّاكِ لَا أَقْلِى

أى لكن أنا لا أقليك . ويقرب منه قول الآخر[2] :

ولو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى ... ولكنّ زَنجِىٌّ عظيمُ المَشَافِرِ

أى ولكنك . وقوله تعالى :

---

(١) الأضداد لابن الأنبارىّ ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته وقائله ، مع أنه مشهور ، وقلما خلا منه كتاب نحوىّ . والله أعلم » .

الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبرىّ (طبعة المعارف) .

(٢) أنشده سيبويه فى كتابه ١/٢٨٢ .

وقائله الفرزدق .

وأنشده فى اللسان فى مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكن زنجيًّا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا)

« وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشرىّ. يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل، على أنها خبر مبتدأ محذوف. تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شىء شاء الله كان) ونظيرها فى حذف الجواب (لو) فى قوله[1] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ) والمعنى: هلا قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده . إذ لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده ، إلا بالله تعالى. والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ » أى فى الدنيا أيضاً « خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » أى تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، لملاستها

(١) [١٣ / الرعد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى (إِن تَرَنِ) وقوله (أَن يُؤْتِيَنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يثبتها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا)

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ » أى بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشرىّ : (أحيط به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى[1] (إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله قولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية . شبه إهلاك جنتيه بما فيهما ، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضاً ، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا » أى فعبّر نفسه أكثر من تعييره صاحبه وتعيير صاحبه إياه . قال الزمخشرىّ : تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بِعَضِّ الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدّى تعديته بـ (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفا لغوًا . ويجوز كونه ظرفاً مستقرًّا متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

ـ كما قال الراغب ـ الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها . و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شىء . فإذا سقط سقط ماعليه . يعنى أن كرومها المعروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم، بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقلب) « يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا» أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتِىَ من جهة شركه وطغيانه . فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)

« وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ » أى منعة وقوم « يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى يقدرون على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

« هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك. (الولاية) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشفى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه المؤمن ، وصدَّق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه . فلا ينقص لمؤمنٍ درجة ، لدناءته فى الدنيا ، ولا يترك لكافرٍ عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لايغلب ولا يمتنع منه. أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كلُّ مضطر. يعنى أن[١] (يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) كلمة ألجئ إليها فقالها، جزعا مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى[٢] : (فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون[٣] «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ* ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ) أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله[٤] : (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ) ويناسبه قوله[٥] : (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) .

و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ(منتصراً) وإن الوقف عليه. أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة. أى وما كان منتصراً فى ذلك الموطن الزى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جدًّا ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربيةً . وما كل جائز عربية رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشرىّ ومن تابعه . و (الحق) قرئ بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بعامل مقدر. وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرئ بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالعُشُر والعُشْر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه

(١) [١٨/ الكهف/ ٤٢] . (٢)[٤٠/ غافر/ ٨٤]. (٣) [١٠/ يونس/ ٩٠و٩١] .
(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولهما قصة . ولا دليل فى ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوّز فى هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين، من غير تشبيه واستعارة . وقد عنى بأحد الرجلين فى التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى، سيكون الأمر فى الآخرة أعلى[1] (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا)

« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه فى زهرتها وسرعة زوالها « كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتفّ بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنوْر والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزَّهْو « هَشِيمًا » أى جافًّا يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال محرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النموّ . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المُثُل وأبدعها ، ضرب كثيراً فى التنزيل ، كقوله تعالى فى سورة

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

يونس[١] : (إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . .) الآية . وفى الزمر[٢] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ . . .) الآية . وفى الحديد[٣] : (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ . . .) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » وذلك لإعانتهما فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروىّ ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أى والأعمال التى تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، فى الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانىّ والنعيم الأبدىّ ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمسّ . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

---

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) إفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر فى الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية، لأن زينتها مختصة بها.

(٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة، لاسيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة[1] (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ) ـ للإيذان بأن بقـاءها أمر محقق لاحاجة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لاوصف. ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة. كذا يستفاد من أبى السعود، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيـات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرّج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيـل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده .

ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ » أى اذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها فى الجوّ . كما

(١) [١٦ / النحل / ٩٦] .

ينبئ عنه قوله تعالى[١] : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباءً منبثًّا « وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً » لبروز ماتحت الجبال ، أى ظهوره، بنسفها وبروز ماعداه بزوال الجبال والكثب. حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً، لابناء ولا شجر ولا معلم ولا ماسوى ذلك « وَحَشَرْنَٰهُمْ » أى جمعناهم إلى موقف الحساب « فَلَمْ نُغَادِرْ » أى نترك « مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا صغيرا ولا كبيراً . كما قال[٢] (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) وقال[٣] (ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا)

«وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا» أى مصطفين مترتبين فى المواقف، لايحجب بعضهم بعضاً، كل فى رتبته ، قاله القاشانىّ .

وقال أبو السعود : (صَفًّا) أى غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرّض فيه لوحدة الصف وتعدّده .

قال الزمخشرىّ : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين . يرى جماعتهم كما يرى كل واحد. لايحجب أحدٌ أحداً « لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ » أى بلا مال ولا بنين . أو لقد بعثناكم كما أنشأناكم . والكلام على إضمار القول . أى وقلنا . تقريعاً للمنكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد « بَلْ زَعَمْتُمْ » أى بإنكاركم البعث « أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا » أى وقتاً لإنجاز ماوعدناكم من البعث

(١) [٢٧/ النمل/٨٨] . (٢) [٥٦/ الواقعة/٤٩و٥٠] . (٣) [١١/هود/١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلًا ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً. و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقاليّ ، لا إبطاليّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا فى أعمارنا . قال القاشانىّ : يدعون الهلكة التى هلكوا بها، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة «مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا » أى أىُّ شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيرًا ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب فى إحصائه كل المعاصى ، وعدّه مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه فى شىء منها .

قال البقاعىّ عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى فى الرسم العثمانىّ) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا » أى مكتوباً فى الصحف تفصيلًا ، من خير وشر . كما قال تعالى[1] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال[2] (يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد فى عقابه. ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ، بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا)

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ » أى العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ » أى فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ، وهم لكم عدوّ يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتّباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ » أى الواضعين الشىء فى غير موضعه « بَدَلًا » بئس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس[1] (وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ) وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

(١) [٣٦ / يس / ٥٩ـ٦٢] .

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك، من خبائة المحتد والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ » أى وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفىُ الإشهاد كناية عن نفى الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر ـ أبلغُ . إذ من لم يشهد فأنّى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكا ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا » أى وما كنت متخذهم أعوانا لخلق ما ذكر، بل تفردتُ بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المضلون ، فلا يكونون أربابا . وإنما وضع (المضلين) موضع الضمير ، ذمًّا لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى[٢] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا)

«وَيَوْمَ يَقُولُ» أى الحق تعالى « نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا، أنهم شركاء لينقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريعاً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ » أى فلم

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٢ و ٢٣] .

يعينوهم ، لعجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفى إيراده ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم » أى بين الكفار وآلهتهم « مَّوْبِقاً » أى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً) ويؤيد هذا قوله تعالى[1] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إنْ جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُم) عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) ـ فهو كقوله تعالى[2] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) وقال[3] (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) وقال تعالى[4] (وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى[5] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً)

« وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم ، وذمًّا لهم بذلك « فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .
(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .
(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ ـ ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى نوّعنا فى هذا القرآن، الجامع للمهمات وأنواع السّعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل، ينبه على مراقى السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شاكلهم « أَن يُؤْمِنُوٓا۟ » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النيّر « وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ » أى عن المعاصى السالفة « إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى طلب إتيانها، أو انتظار إتيانها، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) يضمتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قِبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قُبُلًا) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحتين أى مستقبلًا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ، وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا)

« وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشر من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى « وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ » أى ليزيلوا بالجدال ، الحقَّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل (الإدحاض) إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .

قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره .

ثم أنشد لنفسه :

أتانا بوَحْلٍ لإنكارِهِ ... لِيُزْلِقَ أقدامَ هٰذى الحُجَجْ

« وَٱتَّخَذُوا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ » أى وإنذارهم . أو والذى أنذروا به من العقاب « هُزُوًا » أى استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ، وصرف ما أنعم به ، إلى غير ماخلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يفقوا على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنعهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى[١] : (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

« وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اهتداء ، البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا)

« وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى[٢] : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ) وقوله[٣] : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ) و (رَبُّكَ) مبتدأ و (ٱلْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ) والموعد المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والكل لاحق بهم . و (الموئل) الملجأ والمنجى . أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا)

« وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ »

---

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » أى وقتاً معيَّناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يغتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يخفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا» أى اذكر وقت قول موسى لفتاه، لا أبرح، أى لاأزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر. أو أسير زماناً طويلًا إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المهايمىّ أى اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولستُ أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوّة. وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحبا له ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا)

« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقد أمره ، وكانا تزوداه .

« فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ » أى طريقه « فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة للمطلوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا)

« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى مجمع بينهما ، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا » أى ما نتغدى به « لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ، وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا)

« قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ » أى خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولًا ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإما للتغليب ، بناءً على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى[1] : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ » أى لك . و (أن أذكره) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصلا ،

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

والباقون بكسرها « وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا » أى أمراً عَجِيباً ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَٰلِكَ » أى المكان الذى اتخذ فيه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغِ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أمارة المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد الغين ، وصلا لا وقفاً . وبإثباتها فى الحالين . وبحذفها كذلك « فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لئلا يفوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)

فَوَجَدَا » أى فأتيا الموضع المنسىّ فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ » التنكير للتفخيم ، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه ، بعونه تعالى ، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى آتيناه رحمة لدنّية ، اختصصناه بها « وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلاً آثرناه . وهو علم لدنّىّ يكون بتأييد ربانىّ . وسنذكر إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنّىّ فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

«قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ» أى أصحبك « عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علما ذا رشد . أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجهل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل معتذراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا » أى من أمور ستراها ، إن صحبتنى ، ظواهرها منا كير وبواطنها لم يحط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا » أى لاأخالفك فى شىء.

قال الزمخشرىّ : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبىّ المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين . وأنه لابد ، لما يستسمج ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى لا تفاتحنى بالسؤال عن شىء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا)

« فَٱنطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا » أى عظيماً من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا » ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط . يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر علىّ فيها . لأنك لم تحط بها خبرا . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذة به تُفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » أي لا تحمل عليَّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسراً ، لئلا يلجئنى إلى تركه. أي لا تعسِّر عليَّ متابعتك ، بل يسِّرها عليَّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا)

« فَانطَلَقَا » أي بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » أي أنها لم تقتل نفساً فتُقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا » أي منكراً . أو أنكرَ من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكار بالشرط الأول. ونكتة زيادة (لَكَ) هو ـ كما قال الزمخشرىّ ـ زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى (المثل السائر) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا)

«قَالَ» أي موسى «إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا» أي بعد هذه المرة « فَلَا تُصَاحِبْنِي

قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا » أى وجدت من جهتى عذرًا . إذْ أعذرتَ إلىّ مرة بعد مرة ، فخالفتُك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

« فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف فى تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف فى مجمع البحرين . ولا يوثق بشىء منه « ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذى هو حق ضيافتهما عليهم . وقرئ (يُضِيفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيَّفه : أنزله ليطعمه فى منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ » أى ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمداناة والمشارفة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هى مجاز لغوىّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشرىّ ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُۥ » أى عمَّره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عملك جعلًا حتى تنتعش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)

« قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَٰحِبْنِى) أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

صَبْرًا » أى بمآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبعاقبته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شرّه ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل مافعلتُ) أو (بتأويل مارأيتَ) ونحوهما، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصباً . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا)

[٨١] (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ » أى لو تركناه « أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَآ » أى بقتله « أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)

« وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى تفضل بها عليهما . و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُۥ » أى ما رأيت منى « عَنْ أَمْرِى » أى عن اجتهادى ورأيى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى « ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى مآله وعاقبته. قال أبوالسعود (ذَٰلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِع) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر ، وأنه لا ينافى التوكل . ونسبة النسيان ، ونحوه من الأمور المكروهة ، إلى الشيطان ، مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم المشيئة فى الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (للثلاث) اعتباراً فى التكرار ونحوه . وأنه لابأس بطلب الغريب الطعام والضيافة. وأن صنع الجميل لايترك ولو مع اللئام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال. وأن المسكين لايخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شىء لايكفيه. وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم. وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه. وأنه تجب عمارة مايخاف منه، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال فى الأرض . انتهى .

وقال البيضاوىّ : ومن فوائد هذه القصة أن لايعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار مالم يستحسنه ، فلعل فيه سرًّا لايعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للمعلم ، ويراعى الأدب فى المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية ـ كما فى (فتح البارى) ـ استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجشم المشاق فى ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ. وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناسى . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة. وقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية. وفيها حسن الأدب مع الله وأن لايضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيبها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله[1] ﷺ (والخير بيديك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله: (أَهْلَ قَرْيَةٍ) ثم قوله : (لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من حديث طويل (طبعتنا) .

الثانى ـ ذكر الناصر فى (الانتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآى المذكورة . فنأثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد فى الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذى حدّه الله تعالى له . فلعل الحكمة فى إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافر فى طاعةٍ وطلب علمٍ ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه. وتلك سنة الله الجاريةفى حق من صحت له نيةفى عبادة من العبادات، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيّناً، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمرُ بها الناس ، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلًا وآجلًا . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار، الالتهابُ والحميّة للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) فنسى نفسه واشتغل بغيره ، فى الحالة التى كل أحد فيها يقول (نفسى نفسى) لايلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزمخشرىّ (فإن قلت قوله : (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغصب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها لمساكين . فكان بمنزلة قولك . (زيد ظنى مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب فى إعابتها كونها لمساكين. ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك فى غصب السفن . وهذا هو حد الترتيب فى التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جعله مقدماً ، والنية تأخيره . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآى ، والمخالفة بينها فى الأسلوب عجباً . ألا تراه فى الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسنده فى الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه فى قوله : (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) ، (فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه . وأما إسناد الثانى إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أَمَرَ الملكُ ودَبَّرَ) ويدل على ذلك قوله فى الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث ـ قال الخفاجىّ : فى إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعنى فى قوله تعالى : (اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلاح الصفدىّ سائلاً عنه السبكىّ فى قصيدة منها :

رأيت كتابَ الله أعظمَ معجزٍ ... لأفضل مَن يُهْدَى به الثَّقَلَانِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظ وبسط معانى
ولكننى فى (الكهف) أبصرت آية ... بها الفكر، فى طول الزمان عنانى
وما هى إلا (استطعما أهلها) فقد ... نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء فى وضع ظاهر ... مكان ضمير ؟ إن ذاك لِشانِ

يعنى أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطعماهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذى تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولا ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز فى القرية ، كقوله[1] : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولمن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مخلّ . فليس ماهنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما (الأهل) الثانى فأعيد لأنه غير الأول. وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه. لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فردا فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فُهِمَ غير المراد . أما لو قيل : (استطعماهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطعماها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب، كما أثبتوه فى محله. وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة فى الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد فى البلد) أو (فى الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله[2] :

ليت الغرابَ غداة ينعبُ بيننا ... كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لكراهة اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع ـ أبدى بعضهم سرًّا للتعبير أولا (بتستطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال: لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل مالم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا . فقال : (سأنبئكَ بتأويل مالم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال[3] : (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف [٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاجِ ... فانظر بتوضِحَ ، باكرُ الأحداجِ

وفيه هناك (ينعب بالنوى) عوضاً عن (ينعب بيننا) . (٣) [١٨/ الكهف/ ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ مالقيه ببيان سببه ـ فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما ألطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك .

الخامس ـ قال الإمام السبكيّ رحمه الله : مافعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به. لأنه أوحي إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين. ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام، لم يجزله ذلك. وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروريّ : كيف قتله وقد نهى النبيّ ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ماعلمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجّة والإحالة على مالم يمكن قطعاً ، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيقيّ ولا إيمان حقيقيّ . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به. وهو نبيّ . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح. لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع. فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار مايؤول إليه أمره أن لوعاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لايعلمه إلا الله . ولله أن يحكم فى خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لاتفيده . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطارّ الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشبّ ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى فى قصة الإسراء عن النبيّ[1] صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاما بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاريّ[2] : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما فذبحه قال موسى: أقتلت نفسا لم تعمل بالحنث . ولكن لانصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالىّ ـ تابعى صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه ـ إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما فى البخاريّ[3] . ووقع فى رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائىّ) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ،ف قال بعضهم : ياأبا عباس ! إن نوفا يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذى طلب العلم إنما هو موسى بن منسا. أى ابن إفراثيم بن يوسف عليه السلام. فقال ابن عباس: أسمعت ذلك منه ياسعيد؟ قلت: نعم. قال: كذب نوف. وفى رواية البخاريّ: كذب عدو الله. وإنما قال ذلك مبالغة فى الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٤ ـ باب مايستحب للعالم إذا سئل أى الناس أعلم ، فيكل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبىّ بن كعب . (٣) انظر التخريج السابق .

قال الرازيّ : كان ليوسف ولدان إفرائيم . ومنسا . فولد إفرائيم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولىّ عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هـذا العلم ليتعلم . والخضرُ هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود. واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميّزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارىّ[1] ، ما حدثه به أُبىُّ بن كعب ورفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا. أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ) هو الخضر . قالوا : سمى بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزارىّ فى صاحب موسى . فقال ابن عباس: هو خضر ، فمرَّ بهما أُبىُّ بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيّه . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك ؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقيّه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر . فقال موسى (ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم فى نسب الخضر وفى كونه نبيًّا وفى طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قابيل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك. وكله مما ليس فيه أثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبيٌّ بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الواسطة . وقيل : كان وليًّا . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصِّدِّيقيَّة فهو مقام برزخىّ ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أُنسئَ للخضر فى أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووىّ فى (التهذيب) قال الأكثرون : هو حىّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم فى رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده فى المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر .

وقال البخارىّ وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبىّ ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شىء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميعُ ما ورد فى حياته لا يصح منه شىء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه ؟؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها فى صحيح البخارىّ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٨ ـ سورة الكهف ، ٤ ـ باب قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبىّ بن كعب .

وجامع الترمذىّ . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان فى (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبى الفضل المرسىّ . لأنه لو كان حيا لزمه المجىء إلى النبىّ ﷺ والإيمان به واتّباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حيّا ماوسعه إلا اتباعى . وبذلك جزم ابن المناوىّ وإبراهيم الحربىّ وأبو طاهر العبادىّ. وممن جزم بأنه غير موجود الآن، أبو يعلى الحنبلىّ وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربىّ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزىّ. واستدل على ذلك بأدلة. منها قوله تعالى[1](وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ماروى فى ذلك. والأحاديثُ المرفوعة فى ذلك واهية. والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لايخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارىّ وأضرابه فى ذلك . ولا حجة فى قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد فى ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفى الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر. وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضى غيرهما عليهما . ومن قال إنه نبىّ أو مرسل أو حىٌّ باق ، لم يأت بحجة نيّرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[2] . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله بن معبّر ابن حُرّاق .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان: المجلد الخامس ص ٣٢٣ (طبعة بيروت) .

وقال تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترائى الجن للإنس في بعض البلاد ، مامثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى[1] (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنيٌّ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إنني) وكان ذلك جنيًّا لبّس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذى كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حيًّا على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتى إلى النبيّ ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبيّ أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه. كما قال الله تعالى[2] (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

قال ابن عباس رضى الله عنه : لم يبعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بُعِثَ محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبيّ ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرًا، من أن يلبّس الشيطان عليهم. ولكن لبّس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم فى صورة النبيّ ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميته خرج ، وجاء إليه ، وكلمه فى أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع ـ دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبيًّا وهو المسمى بالعلم اللدنّي . فالآية أصل فيه. وقد ألف حجة الإسلام الغزالىّ، عليه الرحمة، رسالة فى إثبات هذا العلم . ردّ على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولا طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جوّد الكلام فى إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانىّ يحصل من طريقين: أحدهما من التعليم الإنسانىّ والثانى من التعليم الربانىّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانىّ ، فطريق معهود مسلوك محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلّم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر فى الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئىّ . والتفكر استفادة النفس من النفس الكلىّ . والنفس الكلىّ أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة . كالبذر فى الأرض والجوهر فى قعر البحر ، أو فى قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشىء الذى بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبّه بنفس العالم وتتقرب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزارع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذى هو بالقوة كالبذر . والذى هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم فى طول المدة . ويحمل التعب فى طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ، ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر . ثم قال قدس سره : والطريق الثانى وهو التعليم الربانىّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحى وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتتمسك بجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليًّا ، وينظر إليها نظراً إلهيًّا ، ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلىّ قلماً وينقش فيها علومه. ويصير العقل الكلىّ كالمعلم والنفس القدسىّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصداق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ(١) : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد فى قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام. فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالما . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا(٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال(٣) : (أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقلّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، فغرقوا فى بحر العجز(٤) : (قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) فقال تعالى(٥): (يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبىّ المتولد عن الوحى ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحى فى عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول(٦) : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وقال لقومه(٧) : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الربانىّ ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنسانىّ فقال تعالى(٨) : (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) .

(١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .
(٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال فى (أسنى المطالب): سنده ضعيف ومعناه صحيح.
(٧) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثاني ـ هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس الكلّي للنفس الجزئي على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي . فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبيّ . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً . والذي عن الإلهام يسمى علما لدنيًّا . والعلم اللدنّي هو الذي لاواسطة في حصوله بين النفس وبين الباري . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصولة في جوهر النفس الكليّ الأوّليّ الذي هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل الكليّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى الباريء تعالى من النفس الكليّ . والنفس الكلي أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات. فمن إفاضة العقل الكليّ يتولد الإلهام. فالوحي حلية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبيّ . وكذلك الإلهام دون الوحي. فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوي بإضافة الرؤيا . والإلهامُ علم الأنبياء والأولياء . فإنّ علم الوحي خاص بالرسل موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هي قبول النفس القدسيّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدنيّ يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال[1] : (وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً) .

ثم قال عليه الرحمة: فإذا أراد الله بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكليّ الذي هو اللوح. فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معاني تلك المكونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنىّ . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيما . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى[١] : و (يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ) من عباده (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) وهم الواصلون مرتبة العلم اللدنىّ ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلًا ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلًا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدنىّ هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى[٢] : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها ـ تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها . والثانى ـ الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبىّ ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال[٣] : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث ـ التفكر . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكر ، ينفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذى يتصرف فى ماله بشرط التجارة ، ينفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع فى مهالك الخسران . فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب فى قلبه فيصير عالماً كاملًا عاقلًا ملهما مؤيداً . كما قال ﷺ[٤] : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصاً .

وفى خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأباها العقل

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال فى (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال فى (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره الفاكهانى بلفظ (فكر ساعة) وقال : إنه من كلام سرى السقطى .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها فى هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونىّ وسنذكر وجه تلقيبه بذلك « قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله علىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَأَتْبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . فقيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد . وقيل : (أَتْبَعَ) بالقطع يتعدى لاثنين . والتقدير : فأتبع سبباً سبباً آخر . أو فأتبع أمره سبباً كقوله[1] : (وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً) .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٢] .

وقال أبو عبيدة : اتبع (بالوصل) فى السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله[1] : (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث فى الطلب و (بالوصل) مجرد الانتقال . والفاء فى قوله : (فأتبع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله ، لقوله « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارّة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ) يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة فى شأنهم ، بقوله : « قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ » أى بالقتل وغيره « وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » بالعفو . ثم بيّن تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا)

« قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ » أى بالبغى والفساد فى الأرض بالشرك والضلال والإضلال « فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ » أى فى الآخرة « فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً لم يعهد مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ » أى فى الدارين « جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠] .

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزاء الخصلة الحسنى. ويقرأ بالرفع والتنوين و (ٱلْحُسْنَىٰ) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزاء . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزيًّا بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزى بها جزاء ، أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المبانى والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف لـ (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطّعت بهم الأرض . وفى التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العَدَد والعُدَد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما « وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من ورائهما أمة من الناس « لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

« قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جعلا نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والمُلك ، أجلُّ مما تريدون بذله. فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » أى بعَمَلَةٍ وصنّاع وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ، حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

[٩٧] (فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا)

[٩٨] (قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا)

« ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبى الجبلين « قَالَ ٱنفُخُوا » أى فى الأكوار والحديد « حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإحماء « قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مُذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد « فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ » أى يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَٰذَا » أى السد « رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى » على القاطنين عنده . لأمنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى » بدحره وخرابه « جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ » بالمد أى أرضا مستوية ، وقرئ (دكًّا) أى مدكوكا مسوًّى بالأرض . « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » أى كائنا لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، ومايستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ فَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لماله من خفيّ الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل. وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ماقص عن الإسكندر من ضربه فى الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة فى مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذى لايشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغى أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذراً فى الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغى أن ينشط ويمثل فى مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان فى حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو فى ريعان الشباب وقوة الفتاء. فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم. ولم يقف فى وجهه عدد ولا عُدد. وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقى إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغى له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسىء بقدر إساءته . فإن ما حكى عن الإسكندر من قوله[1] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية فى العدل وغاية الإنصاف .

(١) [١٨ / الكهف / ٨٧] .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه فى الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين فى بناء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد فى أخذ أجرة ، فى مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، ففى ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته . كما تأبّى الإسكندر تفضلاً وتكرماً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام. كقول الإسكندر فى مقام تعففه عن أموالهم، والشفقة عليهم[١] (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) كقول سليمان[٢] (فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التى فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون فى الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم، صدقاً فى العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال. فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال فى الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتعاب، ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم فى قوله[٣] (ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال[٣] (هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى) .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧/ النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف/٩٨].

ومنها : الإعلام بالدور الأخرويّ ، وانقضاء هذا الطور الأوليّ ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى والنعيم السرمديّ . ولذا قال (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه فى هـذه الآيات الكريمة ، يتضح له جليًّا حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلوّ الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشريّ ، لاسيما فى زمان كان فيه أكثر عوائد وأخـلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمما متباينة . كما كان يرمى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيّش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدونىّ اليونانىّ . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولا طفلًا مرضَعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليـه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيقه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعى الممات ، وسرت بجسمه قوى الشبيبة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ماخلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيما ظافرا بمنتهى أمله .

التنبيه الثانى ـ فى ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس ، وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) فى الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونىّ وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما فى الدين أعظم تباين . فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدونىّ ، فكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركا يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع فى ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليس بانى الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا. وأما دعوى أنه كان مشركا يعبد الأصنام، فغير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء فى ترجمته ـ كما فى طبقات الأطباء وغيرها ـ أنه كان لا يعظم الأصنام التى كانت تعبد فى ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك. فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يبتلى أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم فى عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فثوّروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما فى (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافى أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه. كالنجاشىّ ملك الحبشة .فإنه جاهر بالإيمان بالنبى ﷺ . وشعبهُ وأهلُ مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكماء قبله . فإن الممعن فى تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضى صاعد : كان فيثاغورس ـ أستاذ

سقراط ـ يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد ، فى ثواب أو عقاب. على رأى الحكماء الإلهيين. فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازىّ : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قويًّا . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر مّا يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه. وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرًّا فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لا سترة فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالاً . وللرازىّ فرص يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها ـ سامحه الله ـ فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبيه الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا . يعنى جانبيها شرقيها وغربيها . أو لأنه كان له قرنان أى ضفيرتان. أو لأنه ملك الروم وفارس. قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع فى توراتهم فى نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كنت متأملًا إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التى هى إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم. بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التى سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبيه الرابع ـ قال الرازىّ : اختلفوا فى ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبيًّا . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول ـ قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ) والأولى حمله على التمكين فى الدين . والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة .

الثانى ـ قوله : (وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . فمقتضى العموم فى قوله : (وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .

الثالث ـ قوله تعالى : (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبيًّا .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبيًّا . انتهى .

ثم قال الرازىّ بعدُ : يدلّ قوله تعالى (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ) على أنه تعالى تكلم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبيًّا . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء ـ فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيص وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ) فقدمنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم . لا أنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل فى الإطلاق الحقيقة . لأنا نقول به ، مالم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر فى بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين ـ ذهاباً فى النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثانى وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء فى الحديث تسمية صاحبه[1] محدَّثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً فى الإسلام ، إلا أنه كان معروفاً قبله فى العباد الأخيار.

التنبيه الخامس ـ حكى فى قوله تعالى : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ) قولان فى أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجّح الأول من وجهين :

أولهما ـ أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدراً . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسُرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة فى كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

---

(١) يشير إلى الحديث النبوىّ الشريف الذى أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبىّ ﷺ أنه قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما ـ أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

التنبيه السادس ـ قالوا: المراد بـ(العين الحمئة) البحر المحيط. وتسميته عينا لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهى لا تفارق فلكها .

وللإمام ابن حزم عليه الرحمة ـ رأى آخر فى الآية. ذكره فى كتاب (الملل) فى بحث كروية الأرض قال : والقرنين هو كان فى العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك فى البحر) تريد أنك إذا رأيته كنت أنت فى البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشتوىّ إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفىّ إذا كانت من رأس السرطان ـ مرئىّ مشاهد. ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازى من الأرض كلها بالبرهان الهندسىّ أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيّف . وهذه المساحة لا يقع عليها فى اللغة اسم (عين) البتة. لا سيما أن تكون (عيناً حمئة) حامية. وباللغة العربية خوطبنا. فلما تيقنا أنها (عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير فى الجهة التى مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة. وانقطع له إمكان المشى بعدها لاعتراض البحار له هنالك. وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعاً. ومن هذه صفته، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض، بمقدار مكان المغارب كلها، لو كان مغيبها فى عين من الأرض. كما يظن أهل الجهل. ولا بد من أن يَلْقَى خَطُّ بصره من حدبة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمادى ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين هى البحر. فلا يجوز أن يسمى البحر فى اللغة (عينا حمئة) ولا حامية. وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح فى الفلك . وأنها إنما هى من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذى لا يتناقض . فلو غابت فى عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أو فى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو فى العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر فى المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبيه السابع ـ قال الرازىّ : الأظهر أن موضع السدّين فى ناحية الشمال. وقيل: جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان فى منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبرىّ فى (تاريخه) أن صاحب أذربيجان، أيام فتحها، وجه إنسانا إليه من ناحية الخَزَر. فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد فى كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى فى المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه .فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه. فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه فى الربع الشمالىّ الغربىّ من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازىّ .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) فى تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التى أهبط منها آدم فى الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر فى القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف فى أقصى الشمال

فى آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج فى كتب اليهود التى يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليسُ فى كتابه فى (الحيوان) عند كلامه على الغرانيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس فى كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان فى جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسىّ وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس. فهيهات خبر من خبر. وحتى لوخفى مكان يأجوج ومأجوج والسد، فلم يعرف فى شىء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو فى الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التى يوجد فيها النبات والتناسل. واعلموا أن كل ما كان فى عنصر الإمكان، فأدخله مدخل فى عنصر الامتناع بلا برهان ـ فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهل . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن فى المحال الممتنع الذى تكذبه الحواس والعيان أو بديهة العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء. انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً مايحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضى حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى فى زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد فى القرآن مايدل على بقائه إلى يوم القيامة. أماقوله تعالى: (هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لايمكن أن يقاوم مشيئة الله القوىّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جمعاء دكًّا فى لمح البصر. فمراد ذى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشىء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة فى أى وقت كان ، وكان هذا السدّ موجوداً ، دكه الله دكا. وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده. وكالثورات البركانية كما قلنا. وليس فى الآية ما ينافى ذلك. وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمرادمنه خروجهم بكثرة وانتشارهم فى الأرض ، كما يخرج الشىء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع فى اللغة . ومنه قولك (فتحوا البلاد) وقوله تعالى[1] (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لا أبواب لهم . بل هم من كل حدب ينسلون. والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرىّ . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض، بعد أن انتشروا فيها، من الإفساد والنهب والقتل والسبى . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتى دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ(السُّد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سدّ حديدىّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه فى نهاية الأرض . وذلك بحسب ماعرفوه منها. ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء فى (صفوة الاعتبار) أن السور الذى وصلوا إليه أيام الواثق من بنى العباس، هو

---

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] .

سور الصين الذى هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفى أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب فى جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد فى الآية ، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولاشك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد فى الممالك . كما فى عهد جنكزخان ، وما عثاه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء فى الجغرافية العمومية ، فى المقالة السابعة والأربعين فى تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن فى تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالى (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدودا بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن ـ قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة

والتعريف . ويجوز همزهما وترك همزهما . وقيل: هماعربيان. فـ(يأجوج) يفعول مثل يربوع . (ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهمامن (أجّ الظليم) إذا أسرع . أومن (أجت النار) إذا التهبت . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث ـ أى للقبيلة كمجوس . فالكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . وعلى العجمة، لا يتأتى تصريفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربيًّا ، كما فى (تذكرة أبى على).

قال الرازىّ : واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بـ(جبل قاف ، فى إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق) فعربهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق فى روسيا وآسيا .

التنبيه التاسع ـ توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن فى مصنفاته من الرواة ، فى تخريج ماروى عن يأجوج ومأجوج. وكله إما من الإسرائيليات أوالمنكرات أو الموضوعات. ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربعمائة ألف أمة . لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدىّ فى (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال: موضوع منكر، ومحمد بن إسحاق العكاشىّ كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير هٰهنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً، فى سير ذى القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها . انتهى .

فجزى الله البخارىّ أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشتراطه الصحة فى المرويات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله : (أن راوى الضعاف غاش آثم مضلّ) وبالله المستعان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » أى نفخ فيه للبعث فى النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ فى الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم الغيب ، أى الأمور المغيّبة عنا ، التى لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذْ جمعنا الخلائق كافة « لِّلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً « عَرْضاً » أى فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفى عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ فى تعجيل الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أبلغ من (وكانوا صمًّا) لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع . أفاده الزمخشرىّ . وفى توصيفهم بالجملتين نكتة أخرى، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية عن الأولى ، كما زعم ، وذلك ـ كما حققه الشهاب ـ إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) لما أفاد أنهم كفاقدى حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جىء به لذمهم بما فى حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به فى الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا)

« أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ » هذا رجوع إلى

طليعة السورة فى قوله تعالى[١] : (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر فى البديع ، جىء بالاستفهام الإنكارىّ ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم. ومفعول (حسب) الثانى محذوف. أى أفحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم ؟[٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا[٣] (سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) «إِنَّآ أَعْتَدْنَا» أى هيأنا « جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا » أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و(النُزُلُ) ما يقام للنزيل أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر ، جهنم عدة . وفى إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا)

[١٠٤] (ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا)

[١٠٦] (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا »

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسلهم « وَلِقَائِهِ » أى بالبعث والحساب والجزاء « فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة « ذَٰلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والعائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا » أى مهزوءا بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنكال . ثم بين ما لمقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحولًا ، لبلوغهم الكمال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدىّ ، لا يختارون عن مقامهم متحولًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » أى لكتابتها « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » أى مع

كثرته ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى » أى لكونها غير متناهية، فلا تنفد نفاد المتناهى .

قال أبو السعود : وفى إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷺ فى الموضعين، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهارُ (البحر) و(الكلمات) فى موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا » أى بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن ، جىء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى[٨] : «وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

تنبيه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لانهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهشامية والكرامية وأصحاب أبى معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حىّ وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص. ومن تكلم بمشيئة أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة. فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته. بل كلامه مخلوق

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧] .

منفصل عنه. والكلابية يقولون: هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة، ولا يكون بمشيئته. والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد. وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه فى أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها فى هذا الباب. والصواب فى هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها؟ أنه سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى. وإنما ناداه حين أتى، لم ينادِه قبل ذلك. وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم. وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة. وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات والصفات، باطلة . هذا ما أفاده تقى الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضا فى قوله تعالى (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل فى المستقبل . فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له. فما من شىء إلا وبعده شىء بلا نهاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا)

«قُلْ» أى لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب « إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ » أى خصصت بالوحى وتميزت عنكم به. (فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَآءَ رَبِّهِۦ »أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا » أى فى نفسه، لائقاً بذلك المرجوّ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا» أى من خلقه إشراكاً جليًّا. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكا خفيًّا . كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه.

قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبيـــة ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلًا وتركًا .

ودلت الآية ـ كما قال ابن كثير ـ على أن للعمل المتقبَّل ركنين : كونه موافقاً شرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركا أصغر، ثبت فى السنة ، وصح فيهـا حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلىّ ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .